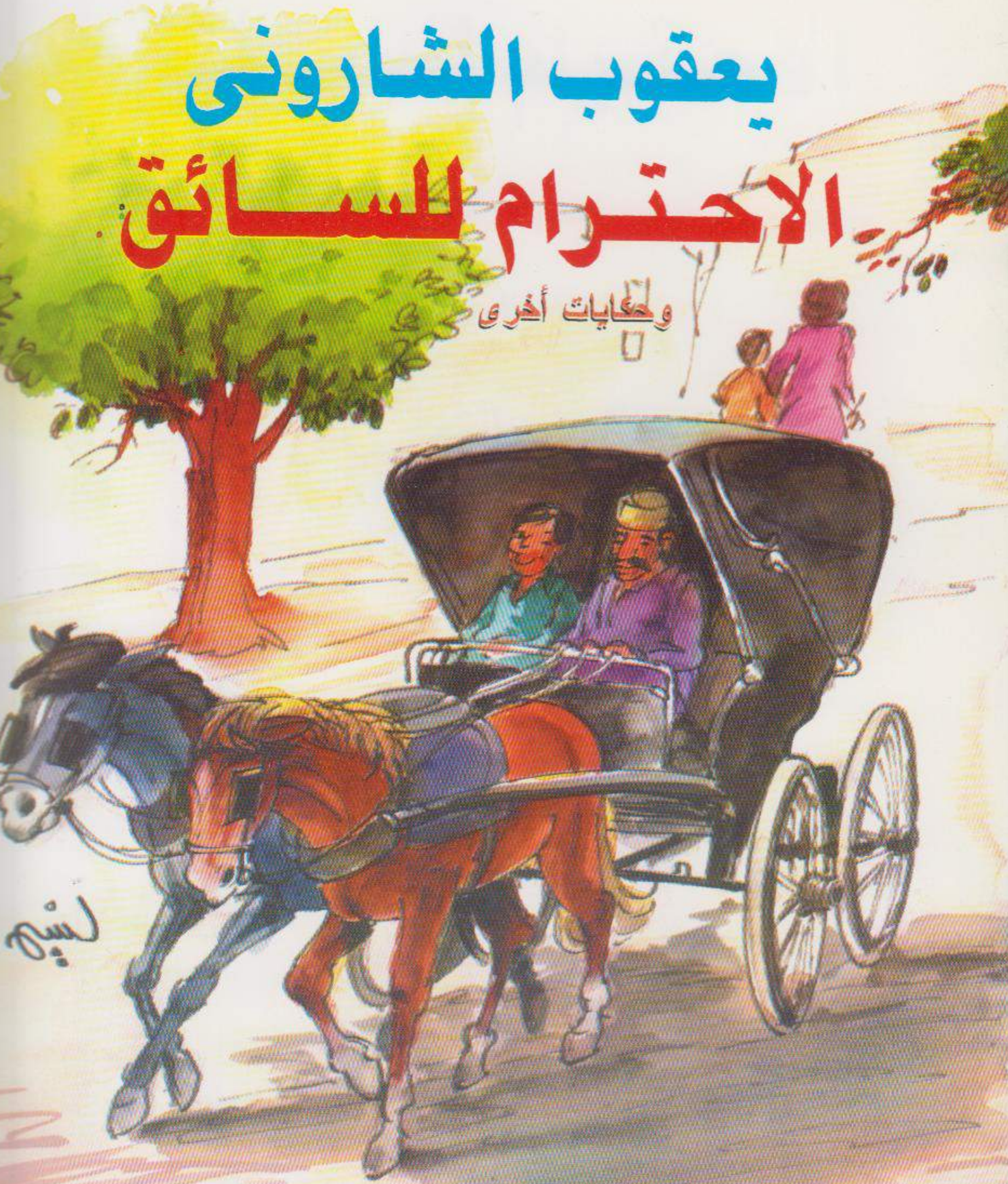
ألف حكاية وحكاية (٥٩)

يعقوب الشاروني

الاحترام للسائق

وحكايات أخرى



مكتبة مصر

ألف حكاية وحكاية (٥٩)

الاحترام للسائق

وحكايات أخرى

تأليف

يعقوب الشارونى

رسوم

نسيم



مكتبة مصر

زيارة لسيدة عجوز

كانَتِ الشابةُ جذَّابةً ، جميلةً ، غنيةً ، لكنها ذهبَتْ إلى صديقتِها ذاتَ مساءٍ ، والدموعُ فى عينَيْها.

إنها تشعرُ بالقلقِ ، ومُصابةٌ بالأرقِ فلا تنامُ أبدًا نومًا عميقًا ، تغضبُ وتتوتَّرُ لأتفهِ الأسبابِ ، وترى الحياةَ سوداءَ لاجمالَ فيها ولا بهجةَ !

قالَتْ لها صديقتُها: "إننى ذاهبةٌ لزيارةٍ .. تعالَىْ معى.."

وذهبَتِ الصديقتانِ إلى شقةٍ متواضعةٍ ، تعيشُ فيها بمفردِها ، سيدةٌ عجوزٌ.

كانَتِ العجوزُ قد أصيبَتْ بشللٍ نصفِيٍّ ، فأصبحَتْ تتحرَّكُ ببطءٍ ومشقةٍ ، لكنها استقبلَتْهما مُرحِّبةً بابتسامةٍ عريضةٍ ، فى غرفةٍ يدلُّ كلُّ ما فيها على ذوقٍ سليمٍ .

وأخذَتِ السيدةُ تتحدَّثُ معهما فى مرحٍ عن ذكرياتِها ، عندما كانَتْ تتردَّدُ على بيتِ الصديقةِ ، وهى طفلةٌ . وتذكرُ بفخرٍ أولادَها الذين يعملونَ فى أماكنَ مختلفةٍ . وتقصُّ القصصَ عن أطفالِ جيرانِها ، الذين يزورونَها ليستمعوا إلى حكاياتِها .. لكنها لم تتحدَّثْ بكلمةٍ واحدةٍ عن مرضِها أو وحدتِها أو بساطةِ حالِها!

وعندَما انصرفَتِ الصديقتانِ ، كانَتِ الشابةُ الجميلةُ الغنيةُ تشعرُ

بتغيُّرٍ كبيرٍ في حالتِها النفسيةِ . واستغرقَتْ لحظاتٍ في تفكيرِها ، ثم قالَتْ لصديقتِها:

"إننى أقبلُ بكلِّ حماسٍ ، أن أعطِيَ هذه السيدةَ كلَّ ما عندى ، في مقابلِ أن أشعرَ بقدرٍ من السلامِ والسعادةِ والرضا التى تتمتَّعُ بها."



الإجابات كلها صحيحة

"هذا شىءٌ واضحٌ مثلُ الشمسِ. تمامًا مثلُ واحد زائد واحد يساوى اثنين .."

هذه عبارةٌ شائعةٌ كثيرًا ما نُنهى بها مناقشاتِنا. لكنى فى أمريكا وجدْتُهم يُعلِّمونَ الأطفالَ شيئًا آخر.



فعندَما دخلْتُ أحدَ فصولِ السنةِ الثانيةِ الابتدائيةِ ، فى زيارةٍ مع أحدِ كبارِ رجالِ التربيةِ، رأيْتُ على السبورةِ المسألةَ التاليةَ :

"إذا كانَ مع نانسى ١٩ قطعةَ حلوى بعضُها أحمرُ وبعضُها لونُه أصفرُ ، فما عددُ القطعِ من كلِّ لونٍ التى يُمكِنُ أن تكونَ مع نانسى؟"

ثم كتبَتِ المُعلِّمةُ : "يُمكِنُ أن تكتبَ سبعةَ حلولٍ على الأقلِّ لهذه المسألةِ."

وبعدَ لحظاتٍ رفعَتْ تلميذةٌ صغيرةٌ يدَها لتقولَ فى دهشةٍ : "أنا كتبْتُ ثمانِىَ إجاباتٍ ."

ثم أشارَتْ إلى الصبِىِّ الذى يُجاوِرُها وقالَتْ : "لكنَّ جيمى كتبَ سبعَ إجاباتٍ تختلفُ كلُّها عن إجاباتى!!"

وابتسمَتِ المُعلِّمةُ وهى تُلقِى نظرةً على إجاباتِ الصبِىِّ والصبيةِ ، ثم قالَتْ : "لكنَّ كلَّها إجاباتٌ صحيحةٌ ."

وهكذا تَعلَّمَ الصغارُ منذُ طفولتِهم أنه أحيانًا يُمكِنُ أن تكونَ للمسألةِ الواحدةِ أكثرُ من إجابةٍ صحيحةٍ ، وأنه يُمكِنُ أن تكونَ إجاباتُ الآخرينَ مُختلفةً عن إجابتى ، لكنْ يُمكِنُ أن تكونَ صحيحةً أيضًا !! إنهم يتعلَّمونَ احترامَ الرأىِ الآخرِ ، وأن الصوابَ قد يكونُ له أكثرُ من وجهٍ.

الاحترام للسائق

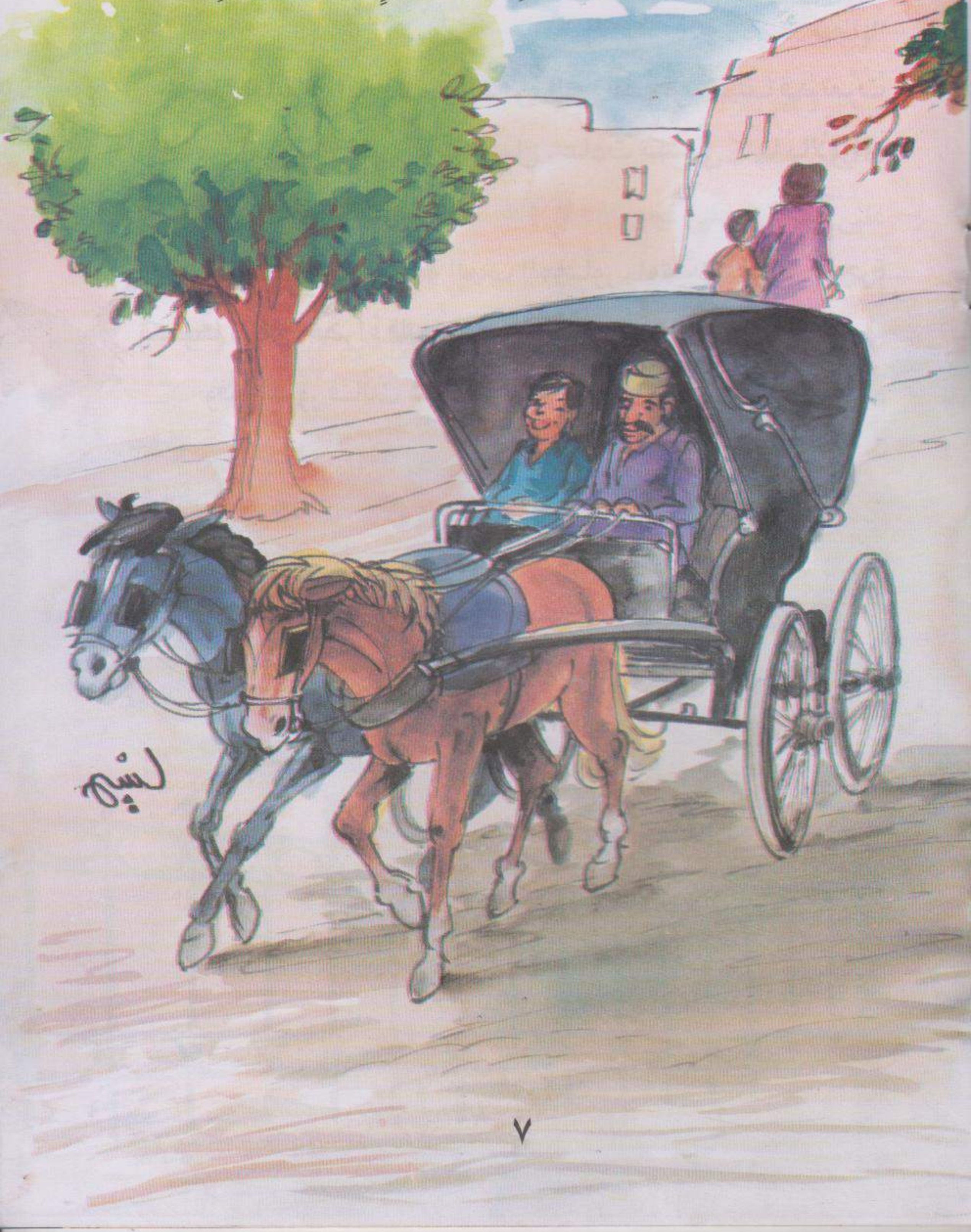
عندما كنتُ صغيرًا ، اعتادَ أحـدُ أثرياءِ بلدتِنا أن يزورَنا، وكـانَ يأتى فى عربةٍ يجرُّها حصانانِ . وكـان أهلُ البيتِ يلتفُّـون حـولَ الضيفِ يسألونَهُ عن أخبارِ بلدتِنا وأقاربِنا .

لكنْ ما من مرةٍ بحثوا عنى أثناءَ تلك الزياراتِ ، إلا وجدونى جالسًا بجوارِ سائقِ عربـةِ الضيفِ ، أستمعُ إلى حكاياتِـه . كـان رجلاً أعطاهُ اللهُ موهبةَ قـصِّ الحكاياتِ بطريقةٍ مشوِّقةٍ جذَّابـةٍ ، حتى إن الساعاتِ كانت تنقضى لا أحسُّ بها وأنا جالسٌ أستمعُ إليه ، إلا إذا جاءَ من أهلِ البيتِ مَنْ ينتزعُنى من جلستى الشائقةِ ، مع تأنيبى على تركى الضيفَ وجلوسى مع سائقِ عربتِهِ.

وذاتَ يومٍ ، كانَ فى زيارتِنا أحدُ كبارِ رجالِ التربيةِ ، وسمعَ أهلَ البيتِ يلوموننى على جلوسى مع السائقِ ، فقالَ المربى الكبيرُ:

"إن الأطفالَ لا يميزون أبدًا بين الطبقاتِ أو المقاماتِ . إنهم يحترمون الرجلَ الذى يحوزُ إعجابَهم بأسلوبِهِ فى قصِّ القصصِ ، أو موهبتِه فى الفهمِ والتقديرِ . ولا يُخفونَ عدمَ اهتمامِهم بمَنْ نُظهِرُ لهم الاحترامَ ، إذا لم يكونوا يستحقُّون فعلاً هذا التقديرَ."

ورغمَ مضيِّ سنواتٍ طويلةٍ على هذا الحديثِ ، فإننى أتذكَّرُه دائمًا ، كلما وقفْتُ موقفَ الحكمِ على شخصٍ من الأشخاصِ.



أوراق خضراء

فى نهايةِ فبراير ، كانَتِ الشجرةُ التى تقفُ قُرْبَ بيتِنـا قد تعرَّتْ تمامًا من أوراقِهـا . وفى نهايـةِ إبريـل ، عـادَتْ تكتسى كلُّها بالأوراقِ الخضراءِ ، زاهيةِ الخضرةِ.

ومن فوقِ سورِ حديقةِ البيتِ المجـاورِ ، امتدَّتْ أغصانُ شجرةٍ تكسوها أوراقٌ خضراءُ قاتمةُ اللونِ.



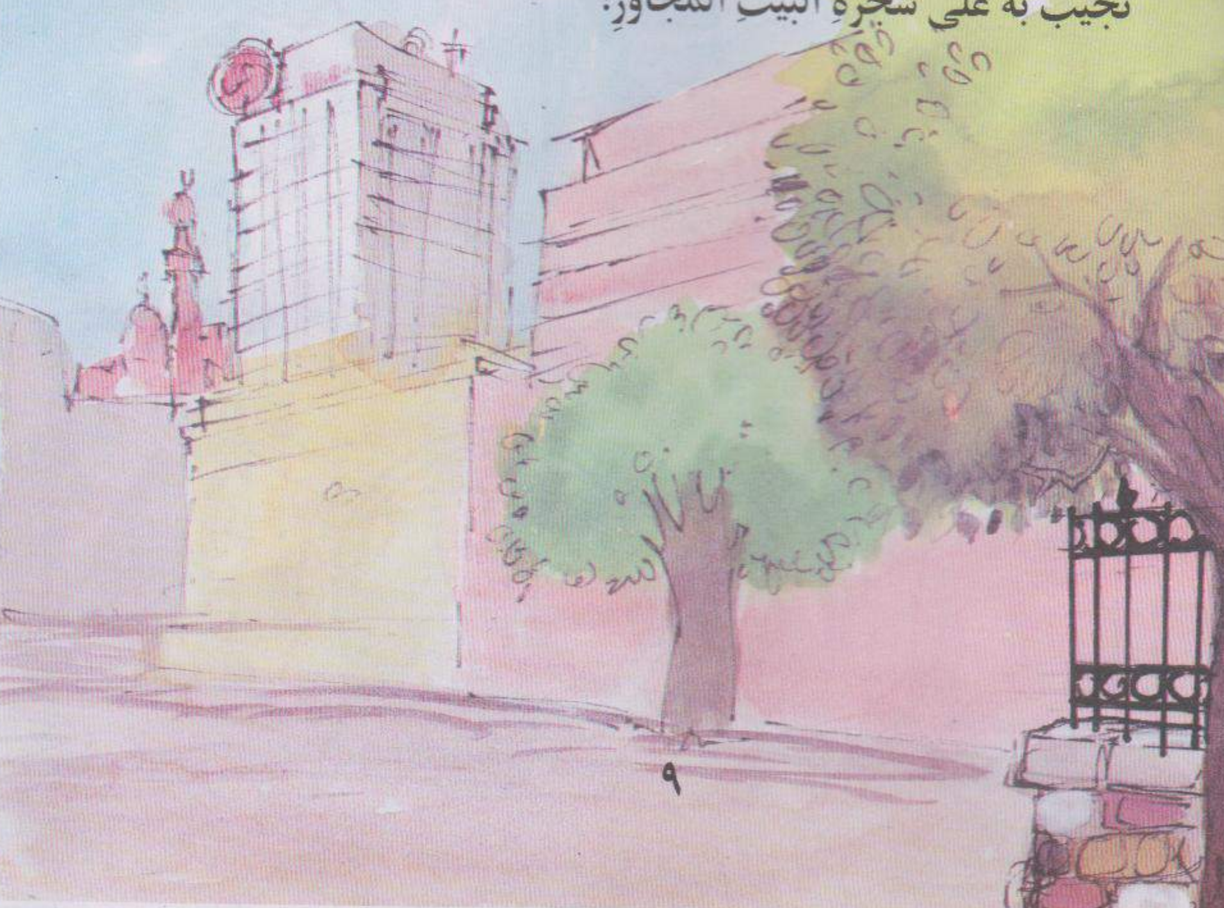
وفـى غـرورٍ قـالَتْ شـجرتُنا: "لسْـتُ أدرى لمـاذا توجَـدُ هـذه



الأشجارُ ذاتُ الأوراقِ الداكنةِ ، التى تُفسِدُ جمالَ أوراقِنا الضاحكةِ الزاهيةِ."

وفى هدوءٍ أجابَتْ شجرةُ الحديقةِ المجاورةِ: "لماذا تتركينَ الطَّيْشَ يدفعُكِ إلى مثلِ هذا الكلامِ ؟! إن لونَ أوراقى الداكنَ دليلٌ على أنها لا تتخلَّى عنِّى طوالَ العامِ ، بل هى تكسونى كلَّ شهورِ السنةِ ، فأظلُّ على جمالى و رَوْنقى حتى فى أبردِ فصولِ الشتاءِ . أما لونُ أوراقِكِ الزاهى ، فعلامةُ على أنكِ تنفضينَ أوراقَكِ ، وتُعانينَ شهورًا من الجفافِ والعُرى."

وتمايلَتِ الشجرةُ التى أمام بيتِنا فى غرورٍ ، لكنها لم تجدْ ما تُجيبُ به على شجرةِ البيتِ المجاورِ!



العلاج بالزهور

فى زيارةٍ قصيرةٍ لهولندا ، ذهبْتُ لأشاهدَ المعرضَ الدولىَّ للزهورِ ، الذى تُقيمهُ تلك الدولةُ على مساحاتٍ واسعةٍ من الحدائقِ الجميلةِ.

وكم أثارَتِ الزهورُ إعجابى بألوانِها وأشكالِها الرائعةِ ، التى تَجسَّدَتْ فيها قدرةُ الخالقِ عزَّ وجلَّ.



لكنَّ مشهدًا ما تركَ في ذاكرتي انطباعًا لا يُمكِنُ أن يُمحَى . فقد شاهدْتُ رجلاً مريضًا ، يجلسُ على كرسِيٍّ له عجلاتٌ ، تدفعُهُ مُمرِّضةٌ شابةٌ ، وقد علَّقوا فوقَ الكرسِيِّ وعاءَ "الجلوكوز" الذى يُغذِّى المريضَ من إبرةٍ غرزوها فى ذراعِهِ . ومع ذلك كانَ يتجوَّلُ على كرسِيِّهِ ، يتأمَّلُ فى فرحةٍ مثلِ فرحةِ الأطفالِ ، أشكالَ الزهورِ وجمالَ ألوانِها!!

وطلبْتُ من مرافقى أن يعرفَ من المُمرِّضةِ تفسيرًا لما أرى ، فقالَتْ إن هذا المريضَ من أشهرِ هواةِ الزهورِ فى هولندا ، وقد وجدَ الأطباءُ الذين يعالجونَهُ أن صحتَهُ ستتحسَّنُ كثيرًا إذا زارَ هذا المعرضَ ، الذى اعتادَ أن يقضِيَ فيه أوقاتًا طويلةً كلَّ عامٍ.

وعدْتُ أتأمَّلُ الوجهَ المبتسمَ للرجلِ المريضِ ، فتأكَّدْتُ أن إرادةَ الحياةِ . قد ملأتْهُ حقًّا من جديدٍ ...



زورونى كل سنة مرة

ورثَ الفتى حبَّ الموسيقى وجمالَ الصوتِ من والدتِهِ ، فالتحقَ بالمعهدِ العالى للموسيقى العربيةِ ، وتَفوَّقَ فى الغناءِ والعزفِ على العودِ ، وذاعَتْ شهرتُهُ.

وذاتَ مساءٍ ، حضرَ حفلَ زفافِ إحدى قريباتِهِ ، فطلبَ الحاضرون ، وكانَ معظمُهم من الأقاربِ ، أن يسمعوا منه أغنيةً بصوتِهِ العذبِ ، فسألَهم أن يُحدِّدوا شيئًا خاصًا محبوبًا لديهم ، فطلبَتْ منه والدتُهُ ، والتى كانَ لها ابنٌ آخرُ يعيشُ فى أمريكا ، أن يؤدِّىَ أغنيةَ "زورونى كل سنة مرة" ، فوافقَ بشرطِ أن تؤدِّيَها هى من بعدِهِ بصوتِها ، فوافقَتْ بعدَ إلحاحِ الحاضرينَ.

وأمسكَ الفتى عودَهُ ، وأدَّى الأغنيةَ أداءً رائعًا ، فدوَّى التصفيقُ، وارتفعَتْ هتافاتُ الإعجابِ.

ثم طلبَ من والدتِهِ أن تنفذَ وعدَها ، على أن يصاحبَها هو بالعزفِ ، وبدأتْ أمُّهُ فى الغناءِ.

ولم يكنْ صوتُها فى جمالِ صوتِهِ ، ولا دقةُ الأداءِ مثلَ دقةِ أدائِهِ، لكنْ لم توجَدْ عينٌ من بينِ الحاضرينَ لم تدمعْ !!

وبعد أن أنهَتْ والدتُهُ الأغنيةَ ، وقفَ الابنُ وقالَ:

"لقد وصلْتُ أنا إلى آذانِكم ، أما والدتى فقد وصلَتْ إلى قلوبِكم .. إننى أعرفُ كلماتِ الأغنيةِ ولحنَها ، أما هى ، فإنها تعرفُ قسوةَ فراقِ الأعزاءِ والأبناءِ!!"



الشغالات تفوز

ذاتَ مرةٍ ، أقامَ النحلُ خليةً جميلةً متينةَ البناءِ ، فى فجوةٍ داخلَ جذعِ شجرةٍ.

ومثلما يوجَدُ فى كلِّ خليةٍ ، كانَ يعيشُ فى هذه الخليةِ نوعانِ من النحلِ: شغالاتُ النحلِ التى تقضى عمرَها كلَّهُ تجمعُ الرحيقَ وتصنعُ العسلَ ، وذكورُ النحلِ الذين يستلقونَ فى كسلٍ وخمولٍ داخلَ الخليةِ ، لا يصنعونَ شيئًا.

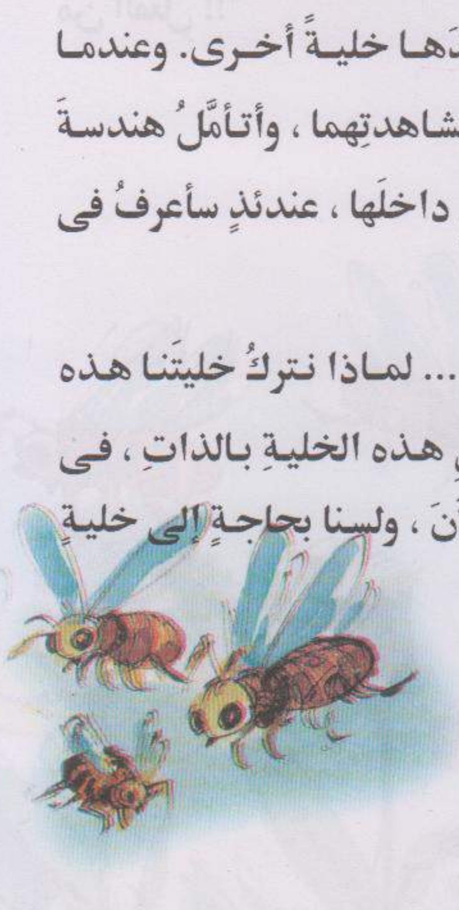


وحدثَ أن ذكورَ النحلِ بدءوا يتفاخرونَ قائلينَ فى مُباهاةٍ:
"ما أذكانا وأقوانا .. لقد استطَعْنا إقامةَ هذه الخليةِ الجميلةِ متينةِ البناء!"

أثارَ هذا الادِّعاءُ غضبَ شغالاتِ النحلِ ، فاستدعَتْ كبيرَ الزنابيرِ ليحكمَ فى صحةِ هذه الادِّعاءاتِ التى يُردِّدُها الذكورُ.

قالَ كبيرُ الزنابيرِ: "من الصعبِ علىَّ جدًّا أن أُقرِّرَ مَنْ منكم الذى أقامَ هذه الخليةَ الجميلةَ متينةَ البناء .. إنكم تتشابهونَ فى أجسامِكم شبهًا شديدًا . ومع ذلك ، فإن عندى اقتراحًا ، هو أن تتركوا جميعًا هذه الخليةَ ، على أن يبحثَ ذكورُ النحلِ عن مكانٍ آخرَ يُقيمونَ فيه خليةً أخرى بغيرِ استعانةٍ بالشغالاتِ ، كذلك تبحثُ الشغالاتُ عن مكانٍ آخرَ تُقيمُ فيه وحدَها خليةً أخرى. وعندما تنتهونَ من بناءِ الخليتَيْنِ ، سأذهبُ لمشاهدتِهما ، وأتأمَّلُ هندسةَ إقامةِ عيونِ الخلايا ، وأتذوَّقُ طعمَ العسلِ داخلَها ، عندئذٍ سأعرفُ فى الحالِ مَنِ الذى أقامَ أفضلَ الخليتَيْنِ."

صاحَتِ الذكورُ: "هذا لَيْسَ عدلاً ! ... لماذا نتركُ خليتَنا هذه لنبنِىَ خليةً أخرى؟! إننا نتباهى بجمالِ هذه الخليةِ بالذاتِ ، فى تجويفِ هذه الشجرةِ التى نعيشُ فيها الآنَ ، ولسنا بحاجةٍ إلى خليةٍ أخرى!"



عندئذ تَقدَّمَتِ الشغالاتُ ، وقُلْنَ فى حماسٍ:

"أمَّا نحنَ . فإننا على استعدادٍ لأن نبدأ فورًا فى بناءِ الخليةِ الجديدةِ . إننا على ثقةٍ بما سيكونَ عليه جمالُها ، ودقةُ وسلامةُ قيامِها بوظائفِها ، تمامًا كالتى نعيشُ فيها الآنَ !!"

هنا التفتَ كبيرُ الزنابيرِ إلى الشغالاتِ وقالَ: "الآنَ عرفْتُ مَنْ منكم يستطيعُ أن يُقيمَ خليةَ نحلٍ جميلةً نافعةً متينةً ، كما عرفْتُ مَنْ الذى لا يستطيعُ ذلك . ومن المؤكَّدِ أن هذه الخليةَ وما بها من عسلٍ هى من صنعِكُنَّ أنتُنَّ ، أيَّتُها الشغالاتُ ، فالأفعالُ تدلُّ على صحةِ الأقوالِ . أمَّا ادِّعاءاتُ الذكورِ ، فهى اكتفاءٌ بالقولِ وهروبٌ من الفعلِ !!"



صدر من هذا السلسلة



دار مصر للطباعة